عمرة القضاء

في ذي القعدة سنة ٧ هـ

قال سليمان التَّيمى: لمَّا رجع رسول الله ﷺ من خَيْبَر بعث السرايا، وأقام بالمدينة حتى استهلَّ ذو القعدة، ثم نادى الناس بالخروج.

وقال موسى بن عقبة: ثم خرج رسول الله ﷺ من العام المُقبِل من عام الحديبية مُعتمرًا في ذي القعدة سنة سبع، وهو الشهر الذي صَدَّه فيه المشركون عن المسجد الحرام.

وقال ابن إسحاق:

وخرج معه المسلمون ممَّن كان صُدَّ معه في عُمرته تلك، وهي سنة سبع، فلمَّا سمع به أهل مكة خرجوا عنها، وتحدثت قريش بينها أن محمدًا وأصحابَه في عُسْرة وجَهْد وشِدَّة، وكانت عُدَّةُ المسلمين ألفين سوى النساء والصبيان.

فلمَّا قدم رسول الله ﷺ أمر أصحابَه فقال: «اكشفوا عن المناكب، واسعوا في الطواف» ليرى المشركون جَلدهم وقُوَّتَهم.

فوقف أهل مكة، الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت، وعبدالله بن رواحة آخذ بخِطَام ناقته يقول - وهو يَرْتَجز متوشِّحًا سيفَه -:

خلُّوا بنى الكفار عن سبيله خلُّوا فكلُّ الخير في رسوله

يا ربِّ إنـي مؤمـنٌ بِقيلِـه أعـرف حقَّ الله في قبوله

وتغيب رجالٌ من المشركين كراهية أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ حَنَقاً وغيظاً، فأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثا.

فلما أصبح من اليوم الرابع أتاه سُهيلُ بن عمرو وحُويطبُ بن عبدالعُزَّى، ورسول الله في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة.

فصاح حُويطب: نُناشدك الله والعقد؛ لَمَا خرجتَ من أرضنا، فقد مضت الثلاث.

فقال سعد بن عبادة: كَذَبْتَ لا أُمَّ لك، ليست بأرضك ولا أرض آبائك، والله لا نخرج.

ثم نادى رسولُ الله ﷺ حُويطبًا أو سُهيلاً، فقال: «إني قد نكحتُ منكم امرأةً، فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها، ونضع الطعام، فنأكل وتأكلون معنا».

فقالوا: نُناشدك الله والعقد إلاَّ خرجت عنَّا.

فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع فأذَّن بالرحيل، وركب رسول الله ﷺ حتى نزل بطنَ سَرِف، فأقام بها، وخَلَّف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حتى يُمْسي، فأقام حتى قَدِمَتْ ميمونةُ ومَنْ معها، وقد لَقُوا أذىً وعناءً من سُفهاء المشركين وصبيانهم.

وكانت ميمونة - رضى الله عنها - قد جعلت أمرَها إلى أُختها أُمِّ الفَضْل، وكانت أُمُّ الفَضْل تحت العبَّاس، فجعلت أُمُّ الفَضْل أمرَها إلى العبَّاس، فزَوَّجها رسولَ الله ﷺ بمكة، وأصْدَقَهَا عن رسول الله ﷺ أربعَ مئة درهم.

*****

ولَمَّا أراد النبي ﷺ الخروج من مكة تبعتهُم ابنةُ حمزة تنادى: يَا عَمِّ، يَا عَمِّ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَالَ لِفَاطِمَةَ: دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ، فحَمَلَتْهَا فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ.

فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي.

وَقَالَ جَعْفَرٌ: ابْنَةُ عَمِّي، وَخَالَتُهَا تَحْتِي.

وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أَخِي.

فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا، وَقَالَ: الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ.

وَقَالَ لِعَلِيٍّ: أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ.

وَقَالَ لِجَعْفَرٍ: أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي.

وَقَالَ لِزَيْدٍ: أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلانَا[1].

*****

قال ابن هشام: فأنزل الله عز وجل عليه - فيما حدَّثني أبو عبيدة -:

﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[2] يعنى خيبر.

*****

(١) البخاري - كتاب الصلح، حديث رقم ٢٥٠١.

(٢) الفتح: ٢٧.